

مستويات اللغة في المقامة العربية

قراءة في النص المقامي

د. بودالي التاج

جامعة سيدي بلعباس

إن اللغة قوة مأكرة يمكن أن يتردد إلى الإنسان خطرها إذا هو عاملها باستخفاف أو أحسن الظن بسطحيتها الشعر العربي، وخطب البلغاء وأمثال العرب السائرة وأسجاع الكهان، ولأن ذوق عصره كان مطلباً مهماً في سمو اللغة التي ظلت متفردة، ليس في الأدب العربي فحسب ولكن في كل الكتابات الإبداعية الأخرى¹.

إن عصر البديع هو عصر الرفاهية اللغوية، بمعنى وجود محصول لغوي كثير، إن المقامات ليست إلا بحثاً عن التناقض بين الماضي والحاضر، أو بحثاً عن محاولة التكيف بينهما، نجد اللغة أكثر ملائمة لتقديم الثقافة ولكن البديع يجعلها قبلته، فهو يذكرنا بقديم اللغة، كانت المقامة تعالج الدوافع المريبة والخواطر المؤذية والأفكار الصعبة معالجة ذكية تحمل طابع الظرف والأناقة واللفظ¹، لكن أكثر الناس لا ينظرون إلى ما فيها من مجاهدة ومغالبة وتنقية لأجواء كثيرة لا تخلو من رهق وعسف وكذب وخداع، اللغة ذات الوجه القديم تنهض من خلال العمل الذي قام به البديع بواجب الظرف الحديث، أي أن اللغة ارتبطت بواقع الناس وظروفهم المعيشية.

كانت المقامات تسألنا إن كنا قد وفقنا حقاً في الملائمة بين ذاك الشرف الرصين الذي تركه الأجداد وملاحم المرح والاستخفاف، كانت المقامات في كلمة موجزة إيماءة إلى بدوي مستخف يلج إلى المدينة كالغريب أو حضري يتسابق إليه للفوز بماله، كانت الكلمات الحضرية قليلة، ولكن الكلمات القديمة تخرج عن إطارها الموروث لتلبس لبوساً جديداً.

تصف المقامة مشاهد الحياة ومشكلاتها بأسلوب فيه الحركة التمثيلية القصيرة، وان غلبت عليها الصنعة اللفظية والصفة البلاغية إلا أنها بمثابة تمهيد للكتابة المسرحية، وللسعافين رأي مغاير إذ يرى أن اللغة في المقامة تميل إلى الدرامية، فاللغة تتعاقب مع الحدث والشخصية وتوحد اللغة وتجاوز البطل ويحاورها فتختفي شخصيته الواضحة فيها وربما تتوحد معها وتظل تتنفس من خلالها، إن اللغة تمثل رؤية جديدة في النص المقامي لأنها تحمل طاقة حركية درامية لتقف عند حدود إظهار القدرة اللغوية أو البلاغية¹.

ثم يضيف الباحث قائلاً: "إن اللغة عنصر في التشكيل الفني للمقامة، تنبثق من ذاتها وتشكل كيانا مستقلاً يشير ثم يتردد إلى ذاته، فالألفاظ في بناء الجملة والجملة في سياق

الفقرة، والفقرة في نموها وتكاملها تثب متحركة، نشطة، تخرق وتحاور الموسيقى الداخلية بما توفره من إمكانات الاختلاف والأنسجام بإيقاعها المسجع أو بحدة أضدادها المعنوية التي تسهم في توثب اللغة وفي انطلاقها شخصية ذات كيان مستقل يؤدي دوره في بينة النص ويحتفظ بحيويته التي يشير إليها ويستقل بها.¹

لقد غلبت المقامة اللفظ على المعنى بداع الاستجابة المنطقية للمتلقى فهي تسعى للإثارة والتشويق ومحاولة السيطرة على وجدان المتلقي وعقله وإدهاشه من خلال اللعب بالألفاظ وانتقائه، حتى لا ينفلت عنها انتباههولا يتغير إلى غيرها اتجاهه¹ لقد ساهمت المقامات في تحلية القبيح وكأنما يقول بديع الزمان نحن في زمن فسدت لغته وفسد أهله وفسد التمييز فيه بين الحق والباطل بين الجميل والقبيح بين الخير والشر، ومن أجل دحض التمييز ترعرعت المقامة وترعرع السجع، ولكنه دحض خفيف الظل..

تبدو اللغة عند بديع الزمان تمثيلا ساخرا للاستبداد¹ أو تمثيلا ساخرا للحرية غير حقيقية، وربما استطاع بديع الزمان أن يشبع الإحساس الوهمي بالترف الذي هو سيد المطالب وربما استطاع أن يوسع مفهوم الترف وأن يحتج له وأن يحيطه بالرعاية، يقول: "يعز علي أطل الله بقاء الرئيس أن ينوب في خدمته قلبي عن قدمي ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي، ويرد مشرعة الأنس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة، وعلي أن أسعى وليس علي إدراك النجاح وقد حضرت داره، وقبلت جداره، وما بي حب الجدران ولكن شغفا بالقطان، ولا عشق الحيطان ولكن شوقا إلى السكان¹ وهذا ما يؤكد الثعالي بقوله: لنقل إن بديع الزمان أخذ في تأليف لغة لا يغلب عليها الخلاف والتعصب والاندفاع.¹

لقد تطورت اللغة على يد بديع الزمان وأثر هزة غير مرئية فيها من الدهشة والخوف والجسارة نصيب، لأنه عالج فكرة الانتماء في كتاباته وكلها تلوح من خلال الأحداث والكلمات والأحداث في المقامات أقرب إلى مناظر الخروج على المجتمع¹.

إن رحلة المقامات رحلة الضياع الذي لا يخالطه سمو ولا قلق عظيم، إن لدينا ما يشبه المسخ الذي أصاب الشخصية المرتحلة، التي تجدد نفسها على الدوام ولا تصبر على شيء، يرتحل أبو الفتح الاسكندري وعيسى بن هشام ليثبتا شيئا غريبا، لقد أصبحنا غرباء عن الرحلة القديمة، وظلت الرحلة طموحا وقد بطل الطموح، تدعو المقامات من وراء الارتحال إلى حكمة مبتذلة، وفيها استحال البطل العظيم إلى مهرج عظيم يعرض أعاجيبه على الدنيا في مشارقها ومغاربها¹ لأن أبطاله والمستمعون إليه لا يجدوا في الارتحال صورة جديدة لمشكلة واحدة باقية مشكلة النظام الاجتماعي كله.

إن لغة دور هام في صنع المقامة وانتشارها فهي لا تعدو أن تتصف بمجموعة من المكونات البلاغية التقليدية كالمحسنات اللفظية والبديعية ولكن الذي يؤخذ على النقاد الدارسين للمقامة أنهم اهتموا بالقراءة السطحية، مراعين في ذلك إبراز جملة من الوظائف اللغوية التي ظل النص المقامي يؤديها في أغلب الأحيان، دون التعمق في القراءات المتأنية للنص اللغوي.

إن اللغة تأتي متراكمة في علاقتها بالمؤلف وظروفه الاجتماعية وبيئته وطبيعة عصره، فهي تختلف من حيث تحقق الغاية التي لأجلها كتب النص، وقد تختفي هذه الأخيرة وراء المعايير الأخلاقية أو التعليمية أو الجمالية، فهي عنصر مهم في العملية الإبداعية وبدونها لن تتحقق الاستجابة القرائية التي ينتظرها المقامي.

تبدأ اللغة في المقامة العربية ألفاظا متقاربة لتكون الجملة في سياق الفقرة، فتنب متحركة، لتشيع في النص موسيقى داخلية، توفر له الانسجام والإيقاع المسجع، فلكل شخصية مرتبتها اللغوية وعناصرها التي تظهر من خلال الحوار، فاللغة هي التي توجد المضمون، مع اختلاف المستوى الأدائي والنمطي، ويراه السعافين بأنها شخصية متوهجة تطلق المضمون وتستقبله في آن معاً، فهي التي تحاور البطل ويحاورها، يقول عنها "وأحس بعقلي أنها اللغة، اللغة التي تحاور البطل ويحاور بها، بل يحاورها فتختفي شخصيته الواضحة فيها، وربما تتوحد معها، وتظل تتوالد من خلالها¹.

أ- القراءة اللغوية للمقامة العربية:

لقد اختار السعافين المقامة المضيرية* لدراساتها لغوية لما تمتاز به من تكلف وصناعة وتأليف بارع ومن جملة النتائج التي رآها: - إن سحر اللغة قد يتأتى بالانسجام الحاصل بين اللفظة والعبارة، دون إتباع التقفية أو السجع رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه.¹

ب- التلوين في التعبير:

بمعنى إطالة الجملة وعدم إتباع السياق المطلوب حضرنا معه دعوة بعض التجار، فقدمت إلينا مضيرة ثثني على الحضارة، وتترجرج في الغضارة...¹

كما نجده يلتزم ببنية الكلمة من حيث الوزن الصرفي العيون، القلوب ومرة من حيث

السجع الخوان، الإخوان

ج- المخالفة في الطول بين الجمل المسجوعة:

ولنلاحظ هذه التقاسيم التي يسيطر عليها السجع، ليعطي للجملة وقعها.

(وكنا ساعدناه على هجرها وسألناه عن أمرها).¹

(قصتي معها أطول من مصيبتني فيها...)¹

(يفديها بمهجته ويصف حذقها في صنعتها، وتأنقها في طبخها...)¹

ح- رشاقة اللغة:

يوظف البديع الجمل التي تتدافع في عنفوان، ويسكنها التوتر الداخلي ثم تنتهي المقامة بجمل رشيقة، ذات حركة متراخية، ولنلاحظ هذا المثال: "ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في الخد الصقيل، لرأيت منظرا تحار فيه العيون."¹ إن المتمعن في لغة البديع يجد سموا مهيبا في اللغة لا يضاهيه سمو إلا في لغة القرآن، ولذلك غلبت عليها الرشاقة والدلال، بل سارع القراء إلى التفتن في ملازمة النصوص وفهمها جيدا.

خ- توظيف اللغة المتداولة:

يقول البديع في المقامة المضيرية: ". وصدعني بصفات زوجته، حتى انتهينا إلى محلته... "¹ إنه يتساءل عن وتيرة اللغة ومؤداها في تنوع الخطاب الإيحائي واستمراريتها في كينونة النص وتواجهه، فأراها ترتد إلى ذاتها، باعتبارها لغة شخصيته، وسماها لغة اللغة لأنها تتسم بدرامية متواترة ولكن كيف يمكن للغة أن تتلاءم مع الحوار الذي يميل إلى الجمل الطلبية المتلاحقة ثم تتلوها الجمل الإخبارية في منتهى الخبرة الاستفهامية. ٩.

يقول البديع: "يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط، تقول الكثير فقط، وتتنفس الصُعداء، وقال سبحان من يعلم الأشياء، وانتهينا إلى باب داره... "¹ إن المعنى له قيمته كما للجملة موسيقاها وإيقاعها في التوصل إلى المعنى المراد، ثم تتلاحق الجمل في تسارع مذهل ينم عن قدرة عجيبة في صنع الموقف الدرامي، المزوج بالموقف النفسي "فلكل علق يوم وكل آلة قوم، يا غلام الخوان فقد طال الزمان، والقصاع فقد طال المصاع والطعام فقد كثر الكلام."¹

تمتاز لغة البديع بالتميز فكل شخصية تعبر بلغتها الخاصة المستقلة وتختلف باختلاف الموقف النفسي وتتنوع بتنوع المدارك العقلية لكل شخص داخل أحداث المقامة، فالأعراب لهم لغتهم الخاصة المائلة إلى الشكوى فتعتمد إلى عبارات ذات إيقاع سريع، تستمد من قساوة العيش وشظفه بيد أنهم يطوعونها حسب الموقف والثقافة السائدة والمتضمنة، ومن أمثلة ذلك:

"وسرنا فلما أحلتنا الكوفة ملنا إلى داره، ودخلناها وقد بقل وجه النهار واخضر ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شاربهِ قرع علينا الباب، فقلنا: "من الطارق المنتاب، فقال: وفد الليل وبريده، وفل الجوع وطريده، وحر قاده الضر، والزمن المر، وضيف وطؤه خفيف وضألته رغيغ، وجار يستعدي على الجوع، والجيب المرقوع، وغريب أوقدت النار على سفره، ونبح العواء على أثره، ونبذت خلفه الحصيات، كنست بعده القرصات، فنضوه طليح، وعيشه تبريح، ومن دون فرخيه مهامه فيح... " ¹

كما أن للهمذاني نبرة مميزة في التعامل مع اللغة، فتارة يأتي بها رشيقة، عذبة، فهاهو يحكي عن الأعراب بلغة أراها خاصة جداً، ¹ فيقول قال عيسى بن هشام: "فقبضت من كيسي قبضة الليث وبعثتها إليه وقلت: زدنا سؤالاً، نذك نوالاً، فقال: ما عرض عرف العود، على أحر من نار الجود، ولا لقي وقد البر، بأحسن من بريد الشكر، ومن ملك الفضل فليؤاس، فلن يذهب العرف بينوالناس، وأما أنت فحقق الله آمالك، وجعل اليد العليا لك... " ¹

يبدو أن بديعا في أسلوبه اللغوي ينحو منحى الأعراب في مقارعتهم للغة وأخذهم بالغريب الذي ألفته الأسماع في البادية، وتجرعته قلوبهم، فهاهو ينتهج قسوة عيشهم وشدة لتكون حاضرة في كتاباته، دون أن يفقدها فكاهته المعروفة ودعابته اللطيفة، كما تشهد في المقامة الناجمية، حيث يسعى البطل البليغ إلى رغيغ يسد به رمقه ويقتل به جوعه أما الوطن فاليمن، وأما الوطر فالطر، وأما السائق فالضر، والعيش المر، فقلنا: لو أقمتم بهذا المكان لقاسمناك العمر فما دونه، ولصادفت من الأمطار ما يزرع ومن الأنواء ما يكرع قال: ما أختار عليكم صحبا، ولقد وجدت فناكم رحبا ولكن أمطاركم ماء والماء لا يروي العطاش. ¹

لقد بالغ البديع في إظهار بلاغته اللغوية ومعرفته الجيدة بفضن القول والإحاطة بأسرار العرب في النثر والشعر، ونجد أنه عرض علينا الكثير من المعارف اللغوية والآراء في الأدب وعلوم العربية، فنراه مثلاً في المقامة العراقية والشعرية يعرض لأحاج وألغاز ترمز إلى بعض الأبيات السائرة من بعيد أو قريب بالنظر إلى معانيها أو ما توحى به من إشارات وإيماءات فيسأل عيسى بن هشام أبتا الفتح الاسكندري قائلاً: "هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله... ؟ وأي بيت لا يرقأ دمعهُ، وأي بيت يثقل وقعه، وأي بيت يشجُ عروضه ويأسو ضربه، وأي بيت يعظم وعيدُهُ ويصغر خطبه... ؟" ¹

قال عيسى بن هشام: "فو الله ما أجلتُ قدحا في جوابه، فقلت: حياك الله وأنعش ضرعك إن رأيت أن تمن عليّ بتفسير ما أنزلت وتفصيل ما أجملت فعلت... فقال: أما البيت الذي لا يمكن حله فكثيرٌ ومثاله قول الأعشى:

دَرَاهِمُنَا كُلَّهَا جِيدَفَلَا تَحِبْسَنَا بِتِنْقَادِهَا

وأما المدح الذي لم يعرف أهله فكثير ومثاله قول الهذلي:

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أُلْقَى عَلَيْهِ رِذَاءٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سَلَ عَنْ مَا جِدَ مُحَضِّ.

وأما البيت الذي يعظم وعيده ويصغر خطبه فمثاله قول عمرو بن كلثوم:

كَأَنَّ سَيُوفَنَا مِثْلًا وَمَنْهُمْ خَارِيقٌ نَوْرٌ فِي أَدِيمِ هَوَاءٍ.¹

فالبديع لم يكن سماعاً للشعر بل من حفظته والمتذوقين له، والا لماذا يأتينا بأبيات من شعر غيره وقد تناسها الناس في عصره. وهذا دليل جل يعلى علو همته في حفظ وتصنيف ما يريده من الشعر لتخدم المعنى الذي برومه، فلا شك إذن أنه استنبط بعد قراءتها لأشعار من أورد فأحس بضرورة الاستفادة منها ومن لغتها لتطويع المعنى وتجلية الغموض، ولكنه أحوال ما يعرف إلى ألغاز لغوية لا زلنا نذكره بها، وسبق في عقولنا شيء من كلامه وبلاغته وخاصة لغته الرائعة

الإحالات:

1. ينظر: محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، دولة الكويت، 1998 ص 179 - 180
2. ينظر: المرجع نفسه، ص 220 - 222
3. ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنية السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، 1998م، ص 168
4. ينظر: محاورات مع النثر العربي، ص 182
5. ينظر: إبراهيم السعافين، أصول المقامات، 118
6. المرجع نفسه، ص 118
7. ينظر: السرد والظاهرة الدرامية، ط1، ص 237
8. ينظر: محاورات مع النثر العربي، ص 184
9. أبي الفضل بديع الزمان الهمداني، رسائل بديع الزمان، ص 190. 189
10. يتيمة الدهر، ج 1، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1957 ص 110
11. محاورات مع النثر العربي، ص 196
12. ينظر: المرجع نفسه، ص 201.
13. إبراهيم السعافين، أصول المقامات، ص 118

❖ - المضيرة: لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض وربما خلط المضير بالحليب وهو الأجود ثم يضيفون إليه التوابل ما يوفر اللذة في طعمه وله مريقة يحمدون أكلها، ينظر: المقامة المضيرية، ص 104

14. بديع الزمان، المقامة المضيرية، ص 104

15. المقامة نفسها، ص. ن .

16. المقامة السابقة، ص 105.

17. السابقة، ص. ن

18. السابقة، ص. ن.

19. السابقة، ص. ن

20. المقامة المضيرية، ص 107

21. المقامة نفسها، ص. ن.

22. أصول المقامات، ص 122 - 123.

23. المقامة الناجمية، ص 190.

24. ينظر: أصول المقامات، ص 129.

25. بديع الزمان الهمذاني، المقامة الكوفية، ص 27.

26. الهمذاني، المقامة الناجمية، ص 192، 193

27. الهمذاني، المقامة العراقية، ص 153.

المقامة نفسها، ص 154